مؤلفات الإمام
محمد قاسم النانوتوي
رحمه الله
وقيمتها العلمية

إعداد: محمد نوشاد النوري القاسمي

* مقال منشور في مجلة وحدة الامة، السنة:٧، العدد: ١٥، ربيع الأول١٤٤٢هـ-مايو٢٠٢١م.

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فهذا بحث موجز يسلط ضوءًا خاطفًا[٢] على مؤلفات الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي (١٢٤٨هـ/١٨٣٣م=١٢٩٧هـ/١٨٨٠م)مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ورائد الحركة التعليمية في شبه القارة الهندية.

كان الإمام النانوتوي رحمه الله مجدِّدَ الإسلام وعبقريَّ الأمة الإسلامية، أخذ على نفسه مهمة الدفاع عن الفكر الإسلامي، فاتجه بعلمه الغزيز كل الاتجاهات الفكرية، كتب في الاختلاف السني- الشيعي، وفي المسائل الخلافية بين مقلدي الأئمة الأربعة وغير المقلدين، والمسائل الخلافية بين المحافظين والعقلانيين، وكذلك تناول موضوع مقارنة الأديان، وأثبت أحقية الدين الإسلامي وفضله على سائر الأديان وموافقته للعقل والفطرة، وصلاحيته لكل عصر ومصر.

إن أسلوب الإمام في جميع مؤلفاته هو أسلوب علمي سائغ، يستسيغه وبكل سهولة المعنيون بالفكر والفلسفة، أما أولئك الذين لم يدخلوا باب الفلسفة، ولم يعرفوا اللب من القشر في المواضيع الفكرية، فهم بالطبع يستصعبون أسلوب الإمام، ومثلهم كمثل من قال فيه المتنبئ:

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجدْ مُرّاً بهِ المَاءَ الزُّلالا

فإن العلماء والمفكرين أجمعوا على قيمة مؤلفات الإمام العلمية، وأنه قد أسهم في وضع أسس جديدة لشرح الفكر الإسلامي في ضوء متغيرات العصر ومتطلبات الحياة الجديدة، وأن كتبه ما زالت تشكل مشعل الطريق ومنارة النور للسائرين في حقل الفكر وعلم الكلام، فهو أجدر بأن يُلَقَّب بحجة الإسلام، أما منهجه الفكري وآراؤه الكلامية فمازال العلماء المتخصصون يكتبون في هذا، ويشعرون بأن مؤلفاته كفيلة

(٢) في الواقع ليس هذا المقال بحثًا ولا دراسةً؛ وإنما أردت التعريف بمؤلفات الإمام، مشيرًا إلى مواضيعها وأبرز خصائصها، فهي دراسة عابرة لا غائرة، ولي كتاب مستقل حول الإمام النانوتوي، سوف يُنشر قريبًا، يحوي دراسةً تحليليةً لمؤلفات الإمام من ناحية العلم والأدب، ومن ناحية الاستدلال والاحتجاج. والله ولي التوفيق.

بوضع أسس علمية، تساهم في صياغة جديدة لعلم الكلام، وهذا مشروع علمي كبير، ينتظر عناية كبيرة من الأفراد والمؤسسات العلمية، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

السياق التاريخي لمنطلقات فكر الإمام النانوتوي:

إن أكبر الشواهد على حيوية الأمة الإسلامية أن الله يقيض في كل عصر ومصر رجالا مخلصين، يقفون حياتهم على خدمة الإسلام، والدفاع عنه بأقصى ما يمكن، فهم يتوجهون إلى إصلاح ما فسد، وترميم ما خرب، وتقويم ما انحرف؛ حتى يعود صرح الإسلام شامخًا متينًا، لاتهزه العواصف، ولا تزلزله الشبهات.

من المعلوم أن رأية الإسلام رفرفت على بلاد الهند لمدة ثمانية قرون، حتى جاء سيل جارف متمثل في الاستعمار الإنجليزي، وقلب الأمر ظهرًا لبطن، ثم زحف الاستعمار ليصيد العقول والقلوب، ويزرع بذور الرِّدَّة والفتنة، عن طريق الإغراء المادي والقوة الكسرية، لتنفتح له سبل، وتتحقق له الأطماع، فما إن تمكن الإنجليز من بسط سيطرتهم على البلاد الهندية عام ١٨٥٧م حتى شهدت الهند تقدما ملموساً في نشاطات المؤسسات التبشيرية، التي جمعت إلى نشر النصرانية انتقاداً قاسيًا على الثقافة الإسلامية، وافتراءً عليها، وزرعت كثيراً من الشكوك في قلوب الهنود، وجرى الإنجليز على المبدأ السياسي الخبيث: "فرِّق تسُد"، ونصب رجالًا مأجورين كأمثال الباندت ديانند سرسوتي ورجال المجتمع الآري ليشنوا غارة شعواء على الإسلام ويأتوا باعتراضات وانتقادات ضد الإسلام، وألَّف الباندت ديانند كتابًا باسم "ستيارته بركاش" وهو كتاب حافل بالاعتراضات السخيفة والأقاويل الصبيانية التي تنم عن حقده السافر على الإسلام؛ حتى إنه قام بشرح جديد للديانة الهندوسية، فيه عواطف جارحة وأفكار متطرفة، ومعاني عدائية للأمم الأخرى.

وفي هذا السياق لم يكن للإمام بد من اختيار المنهج القويم المؤيد بالدلائل القوية، الذي من شأنه إقناعُ المكابر وطَمْأنةُ المؤمن.

كان الإمام يستغل المسلَّماتِ العقلية والمبادئ الفلسفية ويؤسس عليها براهينه الدامغة، وكان عارفًا بمثالب الديانات الأخرى وما فيها من مواضع الزلل والخلل، فكان

يذكرها ويقارنها بالمسلمات العقلية والبدهية، ويثبت بُعْدَ الديانات الأخرى عن العلم والعقل، وعجزها عن إسعاد الإنسانية ومواكبة التطور العقلي.

ومن دلائل شمول هذا المنهج أن الإمام شعر بأن سيادة الفكر الغربي وتطور العلم الحديث (Science) عملَا على النفور من التعاليم الإسلامية، وغرسِ بذور الإلحاد والزندقة، فعاد الإنسان المعاصر ومنه "المسلم المعاصر" قد ضعُف لديه الوازع الديني، وتزعزع في قلبه أساس الإيمانيات والإلهيات، فالتفت الإمام النانوتوي رحمه الله إلى هذا الجانب، وشرح المعتقدات الإسلامية الأساسية في ضوء البراهين العقلية والمنطقية المقنعة.

وفي سياق الرد على الأفكار الهدامة يجب أن نعلم أن منهج الإمام في الرد على النصرانية والهندوسية يختلف تمامًا عن منهجه في الرد على الشيعة وأهل البدع والطوائف الإسلامية المنحرفة.

فقد شرح المسائل الخلافية شرحًا مشبعًا، وأوضح الفكر الإسلامي المتوارَث بكل تفانٍ واتقان؛ لكنه لم يجعله ذريعةً للنيل من شأن الجماعات الإسلامية والحط من كرامتها، ولا يمكن لأحد أن يصف كلامَه بأنه كلام مناظرٍ معاندٍ؛ بل يحسبه مباحثَ علمية وتحقيقية، قدَّمها إمامٌ مخلصٌ يسعى للتقريب بين الصفوف الإسلامية وجمع الأمة الإسلامية على كلمة واحدة.

وقد اعترف كبار العلماء من معاصري الإمام وغيرهم بقيمة منهج الإمام وتأثيره، وأذكر هنا ما قاله الشيخ عبد الرحمن – وكان باحثًا جليلًا ومعاصراً للإمام–: "إن الإمام قد أفحم الأسقف "تاراجند" في مباحثات دينية، وفي المهرجان العالمي لمعرفة الرب، المنعقد في شاه جهان فور عام ١٢٩٣هـ والذي شارك فيه علماء الديانات كلها أثبت الإمام بدلائل لاتُرَدُّ صحةَ المعتقدات الإسلامية وبطلان الشرك وعقيدة التثليث؛ مما بَهَرَ الجميع وسكَّتهم وأفحمهم. وفي المهرجان الآخر عام ١٢٩٤هـ قام الإمام ليثبت تفاهة معتقدات الهندوسية والنصرانية وتحريف الإنجيل وضرورة عقيدة التوحيد، وأسهب في الكلام؛ حتى اضطرب الباندت دياناند سرسوتي، ولم يُحِرْجواباً، أما أساقفة

النصاري فقد ولَّوا أدبارهم تاركين كتبهم وملفاتهم، وفي هذا المهرجان كتب الإمام رسالته الشهيرة "حجة الإسلام"[٣].

مميزات الكتابة للإمام:

وقبل الخوض في ذكر مؤلفات الإمام محمد قاسم النانوتوي يجب أن أذكر هنا بعض ما تميزت به مؤلفاته من ميزات وخصائص، وهي كما يلي:

الميزة الأولى: التتبع والاستقراء:

ولا شك أنها ميزة فريدة لكتب الإمام، فكان يحيط الموضوع بجميع جوانبه؛ بل يبلغ في غوره، ويستخرج معلومات نادرة، قلما تتبادر إليها الأذهان، ويضيف إلى الموضوع جوانب جديدة، لاتخطر على بال.

الميزة الثانية: الجدة والابتكار:

لم يكن من دأب الإمام إعادة الكلام وتكرار المعلومات؛ فكان عقله الحصيف وفكره الناضج وعلمه الغزير يساعده على ابتكار الجوانب الجديدة وشرح الأفكار الإسلامية بمقدمات وبراهين، تجعل الإنسان المعاصر يقتنع كل الاقتناع، وتتحطم أمامها جميع الشبهات والاعتراضات، والمعلوم أن لكل عصر أسلوبه، فالأساليب القديمة في شرح الأفكار الإسلامية لم تعد نافعة في العصر الحديث، فمهمة شرح الفكر الإسلامي تتطلب من كل مفكر ومصلح إسلامي أن يأتي بأسلوب جديد، يواكب العصر ويساير العقلية المعاصرة، وكان الإمام النانوتوي أعرف بضرورة تحديث الأسلوب واختيار منهج عصري شامل، فجدَّد الأسلوب الكلامي القديم، وصاغه صياغة عصرية، وأكثر من الانتفاع بالبراهين الحسية التي يفهمها كل مثقف وأمي.

وصدق الشيخ الفاضل البروفيسور شمس تبريز خان إذا قال: "وبالنظر إلى الأفكار التعليمة للإمام النانوتوي –رحمه الله– يتبين بكل جلاء أنه لو عُمِّر الإمامُ طويلًا لحصل على قسط كبير من العلوم الحديثة، واستفاد منها في شرح الفكر الإسلامي وهذَّبها تهذيبا إسلاميا، فقد أسس مدرسة كلامية جديدة.

---

(٣) سيد نفيس الحسيني، الإمام محمد قاسم النانوتوي كما يراه معاصروه (لاهور: سيد أحمد شهيد اكيدمي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص٥٥.

وكان الإمام يشعر بتأثير السيطرة الغربية والعلم الحديث والعقلانية في الإنسان المعاصر، فحاول جهده في ترسيخ المبادئ الإسلامية المتمثلة في التوحيد والرسالة واليوم الآخر، مستغِلًّا البراهين العقلية التي لا تُرَدُّ، وكان هذا ضرورة الفكر الإسلامي آنذاك"(٤).

الميزة الثالثة: بلاغة الكلام وقوته الأدبية:

إن كثيرًا من علماء العصر يشكون صعوبة أسلوب الإمام النانوتوي، ومثل هذا الرأي لايتخذه إلا أناس كسالى متهورون، لا يعرفون عن الإمام وفكره وأسلوبه إلا معرفة هامشية مشوَّهة، فإن من أدرك البلاغة ومعالمها وعرف مطارح كلام الإمام النانوتوي وخلفيتها شهد بأنه أسلوب بليغ، لاتفارقه الناحية الجمالية للبيان، فإن من فرق بين ميزان الجوهري وميزان البقال، وبين أدوات العلم والكتابة وأدوات الحداد والمهندسين فرَّق بين أسلوب الأديب وأسلوب الفيلسوف، فالإمام النانوتوي هو مجدد الملة الإسلامية، وعبقري الفلسفة الإسلامية، فمن الطبيعي أن تجري المصطلحات المنطقية والفلسفية والرياضية على قلمه بدون تصنع وتكلف، وهذه طبيعة الموضوع الذي يطرقه؛ ولكنه ليس بالطبع أسلوبًا خشبيًا جافًّا؛ بل هو أسلوب علمي رصين، مصحوب بالجمال الأدبي الجذاب والروعة البيانية الأخاذة.

الميزة الرابعة: التنوع والموسوعية العجيبة:

إن المطلع على مؤلفات الإمام النانوتوي رحمه الله يشهد بأنه رجل موسوعي، تجري مجاري علمه في كل اتجاه، فهو يكتب بشكل سوي في كل من الفقه والحديث والتفسير والفكر الإسلامي والمنطق والفلسفة ومقارنة الأديان والرد على الأفكار والاتجاهات المنحرفة، ويبدو في كل موضوع كأنه متخصص في ذلك الموضوع، فيتناول في كل موضوع من المواضيع أصعب جوانبه، وأدق نواحيه.

---

(٤) محمد شمس تبريز خان، الامام النانوتوي، حيات أفكار و خدمات،(الهند: تنظيم ابناء قديم دار العلوم ديوبند، ط١، ٢٠٠٥م)، ص ١٣٢؛ وسيد محبوب رضوي، تاريخ دار العلوم ديوبند، ج١، ص٢١.

الميزة الخامسة:عصرية الأسلوب:

كان الإمام في كل ما كتب وخطب يعيش عصره، فطبعا لم يكن يتخذ الكتابة والخطابة حرفة، يكتسب بها لقمة العيش؛ بل لجأ إليها ليدافع عن الإسلام، ويشرح الفكر الإسلامي، فكان في جميع مؤلفاته عصريًّا بكل معنى الكلمة، فكان لايتناول إلا موضوعًا، طرحه العصر أو طال حوله النقاش، أو أسيء فهمه، ومن هنا نجد أن معظم مؤلفاته جاءت إجابات عن أسئلة وُجِّهت إليه، كما سيظهر.

والحق أن معظم الموضوعات التي كتب حولها الإمام النانوتوي مازالت حيةً مطروحةً، وقد فرغ الإمام من بيان وجهة نظر إسلامية حول هذه الموضوعات قبل قرن، فيجب على العاملين في مجال الفكر الإسلامي أن يركزوا عناياتهم على مؤلفات الإمام، فهي روافدهم العلمية والفكرية القيمة.

قيمة المؤلفات العلمية:

خلَّف الإمام النانوتوي مصنفات علمية قيمة، تبلغ زهاء ثلاثين، وهي مآثر علمية عظيمة، جِمَاعُها العلم العميق والحكمة الدقيقة والفلسفة المؤيدة بالحجج والبراهين، والرد على الاعتراضات المثارة ضد الإسلام، وقد وصفَ كبار العلماء والباحثين معارف الإمام وما تحويه من علم وعقل وحكمة وفلسفة، وصفوها بـ"الحكمة القاسمية".

كان الإمام قبل كل شيء فيلسوفًا إسلاميًّا، يستطيع شرح الفكر الإسلامي بأسلوب عقلي سائغ، وكان من السهل عليه أن يفنِّد الاعتراضات الواردة على الإسلام بشكل يفحم المعترضين على الإسلام، ويجعل الاعتراضات تذهب هباءً منثورًا؛ بل يبدو أن مثل هذه الاعتراضات لايوردها إلا من حُرِمَ كلًّا من العلم والعقل، وطُبِع على العناد والمكابرة، وفي كتبه من الشواهد على هذا القول مايغنيك عن المزيد.

كما أن الإمام كان يتابع المناهج الغربية المستوردة في الرد على الإسلام، ومدى تأثيرها في العقول والنفوس، فأجرى كثيرًا من التعديلات في المنهج الكلامي القديم، وصاغه صياغةً جديدةً، تلبي حاجات العصر، وتقطع ألسنة الخصوم، وترحب بكل اعتراض وافتراء، لتقضي عليه القضاء العلمي الأخير، ليبقى جاثمًا على الأرض بلاحراك، فما إن

تحرَّك دعاة النصرانية والهندوسية في الهند ومعهم أكوامٌ من الافتراءات والأكاذيب إلا وجدوا أن قوس الإمام موتَّرة، وسيفه مُشْهَر، وفرسه مُسرج، وهو مستعد كل الاستعداد لمواجهة التحديات، وقطع الأوهام بالحجج القوية، وفعلا نَازَلَهم في الميدان، وأفحمهم على رؤوس الأشهاد، وبقي منهج الإمام في الدفاع عن المعتقدات الإسلامية متينا محكما، لا تزعزعه العواصف، ولا تصدِّعه التيارات الفكرية الحديثة الجارفة.

فالمآثر العلمية للإمام ليست إلا نهرًا عذبًا، من شأنه أن يروي الغليل ويشفي العليل، ويرسي دعائم الإسلام، ويُحكم بنيان الدين، ومعينًا علميًا فائضًا، تتفجر منه الأنهار والينابيع؛ مما يؤكد على العاملين في مجال الفكر الإسلامي الاعتناء البالغ بكتب الإمام كمصدر هام، ينير لهم السبيل، وييسر لهم المُهِمَّةَ، ويعطيهم من البصيرة والحنكة والمنهج العلمي والعلمي والمواد والبراهين ما يكون لهم زادًا وعونًا كبيرًا في طريق الدعوة إلى الله.

فقيمة مؤلفات الإمام مكنونة في أن مِنْ مقدورها أن تزوِّد كل مفكر إسلامي معاصر بما يحتاجون إليه من منهج صحيح وبراهين قوية وأسس متينة للبيان، وهذا أمر قد شهد به جميع علماء الإسلام ممن اطلعوا على مؤلفات الإمام وأدركوا قيمتها، ومن هنا نجد في الهند أن العلماء يعتنون بكتبهم اعتناء بالغا، ويدعون إلى دراستها الواعية.

يقول الباحث الضليع الشيخ صوفي عبد الحميد خان السواتي الباكستاني في مقال له عن مؤلفات الإمام: "والحق أن الإمام كان إماما بارعا في العلوم النقلية والعقلية، فقد ألف في العقائد كتبا دقيقة قيمة مثل "حجة الإسلام و"تقرير دل بذير"(الخطاب الجذاب)، فقد قام بتقريب الحقائق الإسلامية والمعتقدات الدينية وما يتعلق بها نحو ما بعد الطبيعيات والملكوت والجبروت وعالم المثال واللاهوت والبرزخ وأحوال الآخرة إلى الأفهام عن طريق البراهين العقلية، وصدق الشيخ السندي عند ما قال: كان الإمام ولي الله الدهلوي يبين الإسلام ويقربه إلى أفهام المسلمين، بينما الإمام النانوتوي كان قادرا على تبيين الإسلام لغير المسلمين كاليهود والنصارى والهندوس والبوذيين والمجوس كقدرته على تبيينه للمسلمين"، فإن الإمام النانوتوي يكثر من استخدام مصطلحات المنطق والفلسفة والرياضي ويخاطب عقول العامة، ويستدل بالمشاهدات والمجرَّبات، التي تترسخ مفاهيمها اليوم في عقول الناس، أجل! إن لغته الأردية كانت دقيقة جدا، وذلك لأمرين: الأول أن هذه اللغة

لم تكن متطورة في تلك الأيام، كما تطورت بعد، والثاني: أن المصطلحات العلمية جعلت الكلام غامضا؛ ولكن العلماء والباحثين يستطيعون التغلب على هذه المشكلة، ومثله كمثل كلام الشاه ولي الله الدهلوي، الذي لا يفهمه العلماء بسهولة؛ بل هو في حاجة إلى عنايات وجهود"[٥].

التعريف الموجز بمؤلفات الإمام النانوتوي:

وبعد هذا من المناسب أن أقف وقفة قصيرة مع مؤلفات الإمام، ليتم التعرف عليها بإيجاز، وهي كالآتي:

حجة الإسلام:

هذا كتاب يتحدث عن عقائد الإسلام بأسلوب قاسمي حكيم، يقنع الجاحد ويُطَمْئِنُ المؤمن، وأن كل من يدرس هذا الكتاب بخلوص نية يقتنع بأن عقائد الإسلام موافقة للعقل والفطرة السليمة، وهو كتاب متداول، ظل مصدر العلماء في شرح العقائد الإسلامية، وقد وضع شيخ الهند محمود حسن الديوبندي عناوينه.

وهو في الحقيقة يحمل في طيه خلاصة المحاضرة التاريخية التي ألقاها الإمام في سوق أقيمت في منطقة تشاندا بور بمديرية شاه جهان بور تحت عنوان "معرفة الإله"، وسجلها الشيخ فخر الحسن الكنكوهي بشكل كتابي، وطبعه باسم "حجة الإسلام".

يقول الشيخ عبيد الله السندي: قد قرأت كتاب حجة الإسلام للإمام النانوتوي على شيخ الهند درسًا درسًا"[٦]

تقرير دل بذير (الخطاب الجذاب):

وهذا كتاب رائع للإمام، وضعه لشرح الفكر الإسلامي عن طريق الأسس العلمية والعقلية، وأبدع الإمام في بيان أصول الإسلام وفروعه، حيث فسّرها بأسلوب يستسيغه

---

(٥) عبد الحميد خان السواتي، الإمام النانوتوي ومؤلفاته، نكارشات أكابر(كتابات كبار العلماء): ترتيب: محمد نعمان ارشدي،(الهند: مجمع حجة الإسلام، ط١، ٢٠١٨)، ص٥٠٦.

(٦) محمد نعمان أرشدي، نكارشات اكابر، ص٥١١.

العقل والذوق، ومن أجل ذلك دعا قارئ الكتاب –مهما كانت ديانته ونحلته– إلى الوعي الصحيح وإعمال الفكر والروية، والتخلي ولو للحظةٍ عن الانتماء الشخصي والاتجاه الذاتي، ليتأتى له إدراك قيمة الإسلام ومدى انسجام عقائده مع الفطرة الإنسانية. ولا شك أن القارئ المنصف يدرك بسهولة أن الإسلام هو الدين الحق، والذي يراعي في أصوله وفروعه جميع جوانب الحياة البشرية، ولايهمل مقتضيات الفطرة والحاجات ومتغيرات العصر والزمان؛ بل يضعها في الاعتبار بتناسق عجيب.

ولعل الشيخ سيد محمد ميان الدهلوي بوَّب هذا الكتابَ، وقام هو والشيخ فخر الحسن الكنكوهي بوضع الهامش على الكتاب، والكتاب يتحدث أساسا عن وجود الصانع وتوحيده، وإثبات العقائد وصفات الله سبحانه، وجاء الإمام بتمثيلات نادرة وتشبيهات رائعة، تدل على حقية الإسلام، وتفند الأفكار الباطلة مهما تمَّ تمويهها بطلاء من الأوهام والأحلام.

انتصار الإسلام:

وهذا كتاب قيم، يجيب عن عشرة أسئلة، وجَّهها البانديت ديانند سرسوتي إلى الإسلام، ويحمل الكتاب جوابين عن كل سؤال، والسؤال الأول إلزامي، من شأنه إفحام المعترض، والثاني تحقيقي، وهذه الإجابات جاءت بقوتها وروعتها بشكل بهر المعترضين وألقمهم الحجر والحديد؛ حتى لم يعودوا إلى إعادة مثل هذه الأسئلة، والكتاب احتوى على تحقيقات أنيقة، وقد قام الشيخ سيد محمد ميان الدهلوي بتبويب الكتاب وعقد العناوين عليه، وقد استفاد منه ألوف من الناس، وقدَّم للكتاب الشيخ فخر الحسن الكنكوهي تلميذ الإمام النانوتوي رحمهما الله.

وهذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقاها الإمام النانوتوي في مدينة ركي(Roorkee)؛ حيث ذهب إليها لمناظرة البانديت ديانند سرسوتي(Dayananda Saraswati)، الذي كان قد أثار هذه الأسئلة الخبيثة، وتحدى المسلمين، فانبرى له الإمام، والبانديت –كما مر– آثر الفرار على القرار، لكن الإمام ألقى كلمته القيمة، ودحض أباطيل الأسقف ورتبه تلميذه الشيخ فخر الحسن الكنكوهي.

قبله نما: (الهادي إلى القبلة)

وهذا الكتاب الهام في الواقع جزء ثانٍ لكتاب انتصار الإسلام، يجيب عن أحد الأسئلة التي أثارها الباندت ديانند سرسوتي بكل قوة، فقد اعترض على المسلمين توجههم إلى القبلة أثناء الصلاة باعتباره مظهر الشرك الأكبر قائلًا: إن المسلمين بدورهم يسجدون للقبلة المصنوعة من أحجار كثيرة، فما بالهم يعترضون على الهندوس عبادة الأصنام؟ وقد تناول الإمام هذا السؤال بإجابات مقنعة، وأفرد له كتابًا خاصًّا، وهو هذا الكتاب، وقد ذكر الإمام فيه أولًا سبعة أجوبة عن هذا السؤال، وكلها مقنع، ثم أورد الجواب الثامن، الذي احتوى على جواب مجمل وجواب مفصل، وأخذ الجواب المفصل قسطًا أكبر من الكتاب، واشتمل على معاني قيمة نحو حقيقة الكعبة وحقيقة الصلاة وحقيقة السجدة وشرح استقبال الكعبة، والفرق بين العبد والمعبود وبيان التجلي الإلهي وكون الكعبة مورده وبيان أن الجسم يستقبل الكعبة والروح تستقبل التجلي الإلهي، وأن المسلمين يسجدون للتجلي الإلهي، والتجلي الإلهي بحكم أنه من صفات البارئ كأنه معبود، وبيان كيفية نزول التجلي الإلهي على الكعبة وما إليها من الحقائق الغامضة التي لا يتطرق إليها الأذهان، وقد شرح المسألة شرحًا وافيًا، لم يخطر لإنسان على بال.

فقد شرح كلًّا من حقائق الكعبة والرسول محمد صلى الله عليه وسلم والصلاة ونحوها من القضايا الدقيقة شرحًا عقليًا سائغًا باتزان واعتدال، كما حوى الكتابُ الحديث الضافي عن كل من حقيقة العبادة والتجلي الإلهي والبعد المجرد.

وهذا الكتاب خير دليل على الحكمة القاسمية، التي تتفجر منها أنهار الحكمة والتعقل والفلسفة والإقناع والبراهين. ومن هنا ظل الكتاب متداوَلًا في الأوساط العلمية، وقد قام الشيخ محمد اشتياق القاسمي أستاذ الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سابقا بتسهيله والتعليق عليه. وطُبع الكتاب مرارًا في الهند وباكستان.

آب حياة (ماء الحياة):

وهو من أهم كتب الإمام وأدقها؛ بل قال بعض العلماء: لعله لايوجد في ذخيرة الكتب الأردية كتاب يماثله في صعوبة الفهم ودقة البيان، وكان الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله يقول: إن الإمام النانوتوي رحمه الله وضع هذا الكتاب لاختبار العلماء"[٧].

فحَلُّ عويصات الكتاب أمر يفوق مؤهلات عامة العلماء، يقول الشيخ عبد الحميد السواتي تلميذ شيخ الإسلام حسين أحمد المدني وهو يتحدث عن المؤهلات التي يستطيع –إذا اتصف بها العلماء– فَهْمَ هذا الكتاب: "لايفهم هذا الكتاب إلا من يعرف العقائد الصحيحة معرفة تامة ويتوفر اطلاعه على الدلائل العقلية والنقلية التي يُستدل بها على إثبات تلك العقائد ويعرف كذلك المذهب الشيعي حق المعرفة، وله إلمام تام بالعلوم والفنون المتداوَلة لاسيما المنطق والفلسفة والرياضي والكلام؛ إضافةً إلى التحلي بالحِلم والأناة والصبر والنهم العلمي والولع بالمطالعة وإحكام الرأي وتوقد الذكاء وسرعة البديهة مع الاعتناء بالجانب الروحي ومقاماته"[٨].

وقد ألفه الإمام في عام ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م بإيعازٍ من شيخه الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة رحمه الله، وعرضه على شيخه في رحلة الحج، فصوَّبه ودعا له بالقبول، يقول الإمام في مقدمة الكتاب: "ويعترف هذا العاجز قليل العلم بلسانه وقلبه بأنه إذا كان في الكتاب من المعاني المنتشرة ما يعجب القراءَ أصحابَ القلوب، فهو من فيض مرشدي أدام الله فيوضه، وإن تسرَّب فيه أخطاء فالحقير معترف بأن عقله ضعيف، وعلمه سخيف، ومن أجل ذلك قرأته على مرشدي؛ ولكن إذا رأيته يثني على الكتاب ثبتت عندي حقية معاني الكتاب، سواء صدَّقها أحد أم أنكرها، وهذا دأب المنكرين"[٩].

وموضوع الكتاب هو إثبات حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء الإمام بشرح غريب للموت والحياة، فهو لايعتبرهما متقابلين بالضد؛ بل متقابلين بالعدم والملكة،

---

(٧) عبد الحميد السواتي، الإمام النانوتوي ومؤلفاته، نكارشات اكابر (كتابات أكابر العلماء)، ص٥١٣.

(٨) المصدر السابق، ص٥١٤.

(٩) النانوتوي، محمد قاسم، آب حياة، (الهند: مطبع مجتبائي دلهي، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) ص٥.

ومعناه أنه من الإمكان أن يجتمع الموت والحياة معًا، كاجتماع النار والماء، فالآيات والروايات دلَّت على موت الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد وقع فعلًا؛ ولكن الحياة لم تتم إزالتها بشكل كامل، وأقام على ذلك دلائل عقلية ونقلية جديرة بالمطالعة، ولا شك أن الإمام قد تكلَّف كل ذلك ليقضي على شبهات الشيعة بتاتًا، فالشيعة يعترضون على أبي بكر رضي الله عنه أنه حرَم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ميراث أبيها، واصفين حديث "نحن معشر الأنبياء لانرث ولانورث، ماتركناه صدقة" بأنه مما وضعه أبوبكر– عياذا بالله– فانبرى الإمام ليثبت أن الرسول بقيت حياته حتى عند موته، والأحياء لايجري لهم ميراث، ولاتُنكح نساؤهم، ولاتأكل الأرض أجسادهم، كما ثبت كل ذلك بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا أراد الإمام قطع دابر الاعتراض.

ولكن كبار العلماء قد اعترفوا بعجزهم عن إدراك جميع ما جاء في الكتاب من معاني عميقة وأبحاث دقيقة؛ حتى يقال: إن الشيخ محمد يعقوب النانوتوي قد أخرج بعض الأبحاث من الكتاب بعد إذن من الإمام؛ وذلك لصعوبة فهمها والعجز عن إدراك كنهها(١٠).

تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

وهذه رسالة صغيرة الحجم، كبيرة الفائدة، ألفها الإمام في الجواب عن سؤال ورده بشأن ختم النبوة ووجود سبع طبقات للأرض وما فيها من خلائق حيوانية وإنسانية، وإمكانية إرسال الرسل فيها كما أفاده أثر ابن عباس مرفوعا.

فأجاب الإمام عن هذه الأسئلة إجابةً مقنعةً، فندت كل شبهة، وعرض حقائق عجيبةً لم تخطر على بال، حيث أثبت بالدلائل صحة أثر ابن عباس رضي الله عنهما ووجود سبع طبقات للأرض ووجود البشر والرسل فيها، وتناول قضية ختم النبوة بتفصيلٍ مشبعٍ، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام: من حيث الزمان والمكان والمرتبة، وأثبت جميع أنواع ختم النبوة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن الإمام قد فصَّل موضوع ختم النبوة بشكلٍ لايوجد نظيره في التراث الإسلامي.

---

(١٠) المصدر السابق، ص٥١٥.

نعم! هناك أناس قليلوا العلم لم يبلغوا شأو المعاني، وعجزوا عن نزول غورها، أو تعمدوا سوء الفهم واختلقوا معاني ونسبوها إلى الإمام، مما جعل الإمام يضطرب حتى كتب رسالة أخرى، ودحض الشائعات.

وقد ذُيِّل الكتاب بتصديقات من كبار العلماء، بمن فيهم الإمام عبد الحي اللكنوي رحمه الله.

المناظرة العجيبة:

وهذا الكتاب يحتوي على رسائل الإمام النانوتوي، التي أجاب فيها عن اعتراضات العالم المعاصر الشيخ عبد العزيز على كتابه "تحذير الناس"، وقد استمر تبادل الرسائل بينهما لمدة عام كامل؛ حتى اقتنع الشيخ عبد العزيز بصحة ما يقوله الإمام.

وقد رتب الكتاب الشيخ محمد حسن بن الشيخ أحمد حسن الأمروهوي الذي كان من أخص تلامذة الإمام النانوتوي، يقول الشيخ محمد حسن في بداية الكتاب: "إن بحر العلوم الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله لما طبع كتابه "تحذير الناس" كتب مخدومي الشيخ محمد عبد العزيز اعتراضات قوية على الكتاب، وذلك للتحقيق دون الجدل، وكانت الاعتراضات في القوة والصعوبة بحيث لايمكن لأحد أن يجيب عنها غير المؤلف، فأرسل الاعتراضات إلى الإمام النانوتوي، ثم أرسل الإمام إجابات عنها، فلم يرض بها الشيخ عبد العزيز، واحتدم بينهما النقاش، وجرت سلسلة الرسائل والمكاتبات بينهما لسنة كاملة، وبما أن الكلام كان يرمي إلى الحق والصدق فقد ظهر الحق في الشوط الأخير، وكانت الرسائل كلها موجودة عندي، وكانت هذه المناظرة الكتابية بين العالمين الجليلين بمثابة شرح مقنع لكتاب تحذير الناس، فكان من الضروري نشرها في صورة كتاب؛ ولكن حالت موانع دون طبعها؛ ولكن أحمد الله تعالى وأشكر له على أنه وفقني لطبع هذا الكتاب اليوم، وأرجو أن لايحرمني القراء صالح دعواتهم"[١١] .

---

(١١) الإمام محمد قاسم النانوتوي، مناظره عجيبة، (الهند: مطبع كلزار إبراهيم مرادآباد)ص٢.

وفي الرسالة الأخيرة قال الشيخ عبد العزيز ماحاصله:"كنت موافقًا لكم في العقيدة؛ ولكن صعُب علي فهم التقدم الذاتي والتأخر الزماني؛ ولكن بعد شرح متواصل منكم اقتنعت بأن الصواب معكم، والحمد لله على ذلك"(١٢).

وجاء في نفس الكتاب ما قطع كل الاعتراضات والأوهام؛ حيث قال الإمام: إني أومن بأنه ليس من الممكن ورود نبي جديد بعد رسولنا صلى الله عليه وسلم، ومن ادعى ذلك فأراه كافرا"(١٣).

قاسم العلوم (مكاتيب الإمام):

وهي رسائل الإمام ومكاتيبه باللغة الفارسية، وقام بتسهيلها وترجمتها إلى الأردية والتعليق عليها الشيخ البروفيسور أنوار الحسن شيركوتي رحمه الله.

وقد اشتملت هذه المجموعة على رسائل علمية هامة، وهي تحمل في طيها ذخيرة علمية قيمة، ومن أهمها مكتوب شرح حديث أبي رزين ومكتوب عصمة الأنبياء، وما إليها، وقد شهد العلماء بأن هذه الرسائل قد جاءت بمعاني وخواطر، لاتوجد في كتب أخرى، وهذا هو دأب الإمام، فهو لايتناول الموضوعات التي فرغ منها العلماء الكبار؛ وإنما يتحدث عن المعاني الجديدة، فالجدة والطرافة هي الميزة الهامة لكتابات الإمام النانوتوي رحمه الله.

تصفية العقائد:

وهذه رسالة قيمة باللغة الأردية، تحدث فيها عن خمسة عشر أصلا، بعث بها إليه السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة علي جراه الإسلامية، وجعلها منطلقات أفكاره ومبادئ آرائه، وادعي أن آراءه لا تخرج عن نطاق هذه المبادئ التي تبلغ خمسة عشر، وقد علق الإمام على هذه المبادئ تعليقًا قيمًا، قضى على مداخل وهمية، قد يتمسك بها العقلانيون، والرسالة جديرة بأن يدرسها بكل تدبر وروية كلٌّ من ينصب نفسه لشرح الفكر الإسلامي.

---

(١٢) الإمام محمد قاسم النانوتوي، مناظره عجيبة، ص١٠٥

(١٣) المصدر السابق، ص١٠٣.

والمعلوم أن السير سيد أحمد خان قد تفرد بأفكار عدة، فرد عليه كثير من العلماء، لاسيما الشيخ إمداد علي الأكبرآبادي والشيخ علي بخش البدايوني قاضي كوركهبور وكان الإمام النانوتوي يعرف أفكاره وخدماته في تطوير الأمة، وكان يُكِنُّ له الاحترام والتقدير، ويريد أن يخلص له الود والنصح، ويشير عليه بالرجوع عن مواقفه وأفكاره الشاذة، حتى لاتضيع جهوده الإصلاحية سدى، وكان في مدينة ميروت رجل اسمه الحاج محمد عارف يحب كلا من الإمام النانوتوي والسير سيد أحمد خان، واجتمع الرجل بالإمام النانوتوي في قرية "انبهته" بمديرية سهارنفور، وجرى ذكر السير سيد أحمد خان، ويبدو أن كلا منهما أبدى أسفه على مايتفرد به السير سيد أحمد من أفكار وما يثور حوله من ضجات علمية، وودَّ كل منهما لو رجع السير سيد عن أفكاره لذهبت الفتنة وهدأت الأصوات، فكتب الرجل إلى السير سيد أحمد خان يخبره بأن الإمام النانوتوي يريد لقاءه والاطلاع على آرائه.

فكتب السير سيد أحمد خان رسالة أوضح فيها أصوله الفكرية، وهي خمسة عشر أصلا، وكانت الأصول بظاهرها لم تكن تخالف المنهج الصحيح المقرر من الفكر الإسلامي؛ إلا أن بعضها تحمل في طيها منافذ خفية، ربما تنفذ منها الأفكار الزائغة التي تتصادم مع الروح الإسلامية، وكان الإمام أعلم العلماء في عصره بمواطن الضعف الفكري ومواضع تزل فيها الأقدام بعد ثبوتها، فأفاض في شرح هذه الأصول، واضعا في الاعتبار مسارب الزيغ والضلال، فقد سدَّ هذه المنافذ وأحاط الفكر الإسلامي بسياج منيع؛ فجاء الكتاب مع وجازته يحمل في طيها بحرًا زاخرًا بالمعاني التحقيقية، وضرورةً عصريةً لكل باحث إسلامي.

الأسرار القرآنية:

وهذه رسالة صغيرة باللغة الفارسية، وقصة تأليفها أن الشيخ صديق المرادآبادي رحمه الله قد أرسل رسالةً إلى الإمام، يسأله عن تفسير ما أشكل عليه من آيات قرآنية، فقام الإمام بتفسيرها وشرحها، وفي النهاية قام بتفسير سورتي المعوذتين تفسيرًا حكيمًا رائعًا، كما تضمن الكتاب أحد أصعب أبيات الشيخ الرومي، وتحقيقاتُ الإمام فيما يتعلق بالتفسير بديعةٌ وجديرة بالمطالعة والاستفادة.

التحفة اللحمية:

وهي رسالة وجيزة للإمام، فنَّد فيها مزاعم الهندوس المتمثلة في أن ذبح الحيوانات ظلم، وأن أكل لحومها عدوان صريح، وقد أثبت الإمام ببراهين عقلية سائغة أن ذبح الحيوانات المأكولة اللحم وأكل لحومها مما تقتضيه الفطرة الإنسانية، ويستسيغه العقل السليم، وأقام الطامَّة الكبرى على الهندوس بقوله: إذا كان أكل لحومها ظلمًا وعدوانًا فأي عقل ومنطق يبيح لكم ركوب الحيوانات واستعمال الأحذية وغيرها من الأشياء المصنوعة من جلود الحيوانات وعظامها؟ وهكذا لوكان ذبح الحيوانات عدوانًا لامتنعت الدنيا كلها عن ذلك، وكان الأقدمون من الفلاسفة والحكماء قد نهوا عن ذلك بشكل صريح، ولم يكن الهندوس وحدهم هم الذين يدركون هذه الفلسفة، ثم الهندوس بدورهم يذبحون الحيوانات تعبدا لأصنامهم؛ وهذا كاف في بيان أن فلسفة الهندوس فلسفة عمياء لايؤيدها العقل والفطرة والعرف العالمي.

انتباه المؤمنين:

وهي رسالة صغيرة باللغة الفارسية، شرح فيها الإمام حديثًا نبوياً ورد بشأن الخلافة، مما أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده وغيرهما من أئمة الحديث، وهو : عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ نُؤَمِّرُ بَعْدَكَ؟ قَالَ: إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ، تَجِدُوهُ أَمِينًا، زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا، رَاغِبًا فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيًّا أَمِينًا، لاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيًّا – وَلاَ أُرَاكُمْ فَاعِلِينَ– تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، يَأْخُذْ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ"(١٤).

وأسهب الإمام في بيان ما اختص به هؤلاء الخلفاء من باهر المزايا وأنبل الصفات، وجاء بتحقيقات رائعة، كما أن الكتاب اشتمل على رسالة عربية للشاه إسماعيل الشهيد، كتبها إلى الشيخ عبد الله البغدادي، يجيبه عن إيراداته على كتاب تقوية الإيمان للشهيد.

---

(١٤) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م)، باب مسند علي، رقم الحديث:٧٥٩.

ميله خداشناسي (المهرجان العالمي لمعرفة الله):

وهذا الكتيب يتضمن تقريرًا جامعًا عن المناقشات والمناظرات التي دارت عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م بين ممثلي الإسلام والنصرانية والهندوسية في المهرجان العالمي الأول بمدينة شاهجهانفور، وقد حقق الله للإسلام والمسلمين فتحًا مبينًا وانتصارًا ظاهرًا على الأديان كلها، وكان الإمام النانوتوي رحمه الله في المهرجان ممثل الإسلام والمسلمين، والكتاب احتوى على كلمات الإمام ومناقشاته القيمة وردوده على شبهات المعترضين على الإسلام.

مباحثة شاهجهان فور:

وهذا كتاب يحتوي على خطب وكلمات الإمام، التي ألقاها في المهرجان العالمي الثاني المنعقد في شاهجهانفور عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، شارك فيه ممثلون للإسلام والنصرانية والهندوسية، واشتمل الكتاب على إجابات الإمام عن الأوهام والافتراءات التي أثارها كل من الباندت ديانند سرسوتي والباندت إندرمن والقسيس إسكات(وكان يُعَدُّ مفسرًا للإنجيل) والقسيس نولس ومن إليهم، وكانت موضوعات المناقشة تدور حول الآتي:

- بأي شيء خلق الله هذا العالم؟
- وهل أحاط الله بكل شيء علماً؟ وكيف؟
- كيف يجمع الله تعالى بين العدل والرحمة؟
- ما الدليل على أن القرآن كلام الله؟
- ما الذي يمنع الكتاب المقدس (الإنجيل) والفيدا أن تكون كتبا سماوية؟
- كيف تحصل النجاة؟

بالإضافة إلى الشبهات التي تمسكوا بها، واهمين بأنها تُفحِم الإمام النانوتوي ممثلَ الإسلام والمسلمين.

ولكن الدائرة وقعت عليهم عندما أخذ الإمام النانوتوي يتناول هذه الموضوعات، ويشرحها شرحًا وافيًا مدعَّمًا ببراهين العقل والفطرة والتجربة والواقع، وأضاف إليها من المعاني ما ثبت به فضل الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الكتاب أمضى سلاح للقضاء على الاعتراضات الواردة على الإسلام، وخير مصدر علمي لكل عامل في مجال الدفاع عن الإسلام.

توثيق الكلام في الإنصات خلف الإمام:

وهي رسالة صغيرة للإمام باللغة الأردية، تتحدث عن القراءة خلف الإمام، وهي خير ما يُستدل به على موقف الإمام من القضايا الفرعية والمسائل الخلافية بين الأئمة، فبالرغم من أن الموضوع علمي بُحْتٍ تتعارض فيه الأدلة، وتتضارب أقوال الأئمة شرحه الإمام شرحًا عقليًّا، ونظم الآيات والروايات في سلك منسق، واكتفى بإثبات أفضلية ترك القراءة خلف الإمام، مشيرًا إلى أنه ليس من عادته معاكسة من يخالف هذا الرأي.

وأعجب من ذلك أن الداعي إلى وضع كتاب كهذا هو تطاول بعض الناس على الإمام أبي حنيفة والغض من شأنه والتسرع في الفتوى بأن ترك القراءة خلف الإمام مما يفسد الصلاة.

والكتاب كفيل بشرح المنهج الفكري المعتدل الذي يتسم به علماء ديوبند لاسيما في المسائل الخلافية؛ حيث ليس من دأبهم التعصب والانحياز ؛ وإن غاية ما يسعون له هو شرح ما يتبنونه من رأي وما يقفونه من موقف، وما يمارسونه من عمل.

الدليل المحكم على القراءة للمؤتم:

وهذا كتيب صغير يتحدث عن مسألة القراءة خلف الإمام، ويحمل الكتاب نفس المنهج ونفس البيان، الذي ورد في الكتاب السابق: توثيق الكلام، إلا أن هذا أقصر من ذلك.

اللطائف القاسمية:

وهي مجموعة تسع رسائل للإمام، وكل رسالة في محلها كتاب مستقل، تبحث في مسائل التراويح وحياة الأنبياء عليهم السلام بعد مماتهم، والجمعة في القرى وما إليها.

جمال قاسمي:

وهو كتاب يتضمن رسالتين للإمام، كتبها ردًا على رسائل الشيخ سيد جمال الدين الدهلوي، وهي تتحدث عن وحدة الوجود وسماع الموتى.

يُذكر أن سيد جمال الدين طَلَبَ في بعض رسائله إلى الإمام النانوتوي رحمه الله أن يكتب له مائة رسالة، يودعها المعلومات الأساسية لكل من الهندسة والهيئة وعلم الفلك والفلاحة الطبيعية والجبر والمقابلة والحبر الثقيل وما إليها من العلوم والفنون، ولا ندري هل حقق الإمام النانوتوي هذا الطلب أم لا؟

يقول الشيخ سيد فخر الحسن الكنكوهي في مقدمة كتاب انتصار الإسلام: "إن هناك مجموعة من كتب الإمام النانوتوي، لم يتم طبعها من بعد، وهي بالغة نحو مائة جزء، وقد عزمت على طبعها، وفقني الله لذلك آمين".

الفيوض القاسمية:

هذا الكتاب هو الآخر مجموعة عدد من رسائل الإمام إلى تلامذته وأحبابه، الذين وجهوا إليه بعض الشبهات العلمية القيمة، كما أن الكتاب قد تضمَّن الإجابات عن الاعتراضات الواردة على كتابه "هدية الشيعة"، فهذه الرسائل تتحدث عن شتى القضايا والمسائل العلمية بما فيها تحقيق الجمعة في القرى والأرياف، وبحث إيمان يزيد وكفره، والنذر لغير الله، وعلم الغيب وحكمة القراءة جهرًا وسرًا في الصلوات، وتحقيق السنة والبدعة، وتصور الشيخ وتحقيق النفس الإنسانية.

مصابيح التراويح:

كتاب قيم باللغة الفارسية في موضوع صلاة التراويح وعدد ركعاتها، وقد أثبت الإمام بالدلائل أن صلاة التراويح بعشرين ركعة ثابتةٌ شرعا؛ ولكنها ليست موضع الجدل والنقاش، وأن من يعتبرها بدعة فقد تعدى الحد وتمسك بالغلو.

وهذا الكتاب في الأصل جواب عما أورده إليه تلميذه الشيخ سيد أحمد حسن الأمروهوي رحمه الله من استفتاء بشأن ركعات صلاة التراويح، والكتاب قد اشتمل على تحقيقات أنيقة، وقد ترجمه الشيخ اشتياق أحمد الديوبندي إلى اللغة الأردية.

الحق الصريح في إثبات التراويح:

وهذه أيضا رسالة فارسية في موضوع صلاة التراويح، كتبها ردًا على رسالة الشيخ عبد الرحيم، وقد أوضح المسألة بكل اعتدال وإنصاف، ووصف بالغلو والعصبية من يخالفون عشرين ركعة ويعتبرونها بدعة، كما أبدى أسفه على دأب المتعصبين.

أسرار الطهارة:

وهي رسالة صغيرة للإمام، قام فيها بإبانة أسرار الطهارة وما يحفها من نكات ونوادر علمية، وقد أوضحها الإمام بأسلوب علمي طريف، يتفرد به الإمام.

قصائد قاسمي:

وهذا الكتاب يحتوي على بعض قصائد الإمام النانوتوي رحمه الله في اللغات الثلاث: العربية والأردية والفارسية، من أهمها:

- القصيدة البهارية(قصيدة الربيع) باللغة الأردية: قرضها الإمام في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يسيل رقة وعذوبة وحبا للنبي عليه السلام.
- قصيدة في مدح السلطان عبد الحميد باللغة العربية: كان الإمام يرى ضرورة الإبقاء على الخلافة العثمانية، تغنَّى الإمام فيها بمجد العثمانيين وانتصاراتهم على الروم وأعداء المسلمين، جاءت هذه القصيدة بلغة عربية فصيحة.
- رثاء الشيخ حافظ ضامن الشهيد باللغة الفارسية: كان الحافظ ضامن الشهيد خرَّ شهيدا في معركة شاملي الشهيرة عام ١٨٥٧م[١٥]، وكان من خيرة الرجال وصلحاء الأمة في عصره، وقد أبلى بلاء حسنا في المعركة، وفاضت القصيدة بعواطف جميلة وأحاسيس زاكية.

يُذكر أن الكتاب اشتمل على بعض قصائد علماء ديوبند الآخرين، بمن فيهم الشيخ فيض الحسن السهارنفوري والشيخ ذو الفقار علي الديوبندي والشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمهم الله.

---

(١٥) للاطلاع على تاريخ هذه المعركة وأهميتها من بين المعارك الثورية يراجع كتاب "تاريخ الإسلام في الهند" للدكتور عبد المنعم النمر؛ و"علماء هند كا شاندار ماضي" للشيخ سيد محمد ميان الدهلوي.

تعليقه على صحيح البخاري:

من أهم أعمال الإمام النانوتوي الحديثية تعليقه على الأجزاء الخمسة الأخيرة من صحيح البخاري، فقد كان أستاذه الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري كان عزم على طباعة صحيح البخاري من المطبعة الأحمدية بعد تعليق شامل يغني عن كثير من كتب الشروح، وقد بدأ إنجاز هذه المهمة العملية حتى قطع أشواطا بعيدة، ولم يبق سوى الأجزاء الخمسة الأخيرة، ففوض كتابة ما بقي من تعليق إلى أحب تلامذته إليه وأكثرهم ذكاء وفطنة، وأصبرهم على متاعب الكتابة والرجوع إلى المصادر، وهو الإمام النانوتوي الذي لم يبلغ بعد ٢٥ عامًا من عمره.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي في هذا الصدد: "وفي هذه الأيام فوَّض إليه الشيخ أحمد علي السهارنفوري تعليق وتحقيق الأجزاء المتبقية– الخمسة أو الستة– لصحيح البخاري، فقام به حضرة الشيخ خير قيام، يَسُرُّ القراء، ويبعث على الإعجاب به والتقدير له، وأنَّى لأحد أن يعمل عمله، وخفي على أناس مقدرته العلمية، فأفضوا مخاوفهم إلى الشيخ أحمد علي قائلين له: ما بالك فوَّضتَ هذا العمل الجليل إلى رجل شاب قليل المراس؟ فرد عليهم الشيخ أحمد علي قائلًا: لست بهذه المثابة من السفاهة، فآتي أمرًا دون بصيرة منه، وأراهم تعليقات أعدها حضرة الشيخ، فإن تلك المواضيع من صحيح البخاري تعد أصعبها وأدقها، وخاصة تاييد مذهب الأحناف، الأمر الذي تقيد به الشيخ أحمد علي، حين بدأ تعليقاته هذه على الصحيح، وقد تعقب الإمام البخاري مذهب الأحناف بتعقبات يشق الرد عليها كما لا يخفى، فمن شاء فليراجع هذه التعليقات التي قام بها حضرة الشيخ"[١٦].

جواب تركي به تركي(الرد المفحم):

وهذا كتاب جمع فيه الشيخ عبد العلي تلميذ الإمام النانوتوي رحمه الله ما أفاده الإمام النانوتوي في الرد على ما نشروا الهندوس الآريون في جريدتهم "آريه سماجار" في ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، فقد نشروها فيها اعتراضات بشعة على الإسلام، وقد أجاب عنها الإمام بأسلوب قوي جدا.

---

(١٦) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري(سوانح الإمام)، تعريب: محمد عارف جميل، ص٥٦-٥٧.

وقد قام الأستاذ اشتياق أحمد الديوبندي أستاذ بدار العلوم ديوبند سابقا بتسهيله وتبويبه، وأخرجه باسم "براهين قاسمية".

هدية الشيعة:

في عام ١٢٨٣هـ الموافق ٦٧-١٨٦٦م بعث الإمامُ رشيد أحمد الكنكوهي إلى الإمام النانوتوي[١٧] رسالةً تحتوي على بعض اعتراضات الشيعة على السنة، يطلب إليه الإجابة عن هذه الأسئلة، فكتبها في أوقات متفرقة في ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وسماها "هدية الشيعة"، والكتاب أشبه بموسوعة علمية، وأشمل لجميع المسائل الهامة التي يدور حولها المذهب الشيعي وما يتصل به اتصالًا مباشرًا كأمثال مسألة الخلافة وعدالة الصحابة رضي الله عنهم، وعقيدة التقية، ومباحث الفدك والإرث وما إليها، وقد جاءت إجابات الإمام مدعَّمةً بنصوص الكتاب والسنة وكتبِ الشيعة الموثوق بها عندهم بحيث لم يترك لهم مجالا للشك والوهم، وقطع لهم كل خيط من الدعاوي المزعومة.

ومن أهم خصائص الكتاب أنه أُلِّف باللغة الأردية السهلة على عكس كتب الإمام، وقَلَّ فيه استخدام المصطلحات المنطقية والفلسفية، مما جعل الاستفادة منه سهلًا ميسورًا، وقد أودعه الإمام مباحث علمية شريفة ونوادر فريدة قيمة، جاءت شاهدةً على مارزقه الله من فهم عميق للدين وذكاء خارق لشرحه ومواهب عجيبة في الدفاع عن معتقدات الإسلام.

---

(١٧) وكان الإمام النانوتوي والإمام رشيد أحمد الكنكوهي كندماني جذيمة منذ أيام الطلب إلى آخر أيام الحياة، لم يفترقا في المسير الفكري والفقهي والتجديدي والإصلاحي، وإن فرقهما المكان في بعض الأيام، وقد تولى الإمام رشيد أحمد الكنكوهي أعمال الإمام النانوتوي بعد وفاته، وهما يعدان من الشخصيات الأساسية لمذهب علماء ديوبند، وهذا المذهب لا يحيد عن مذهب أهل السنة والجماعة قيد شعرة؛ ولذلك لاتحتاج في فهم عقائدهم إلى مؤلفات علماء ديوبند؛ بل كل كتاب موثوق به لدى أهل السنة والجماعة يمثل عقائد علماء ديوبند، وهذه النسبة ليست لتُفَرِّقَ وتُشَتِّتَ؛ بل لتجمع وتربط، وإنما الديوبندية انتماء تعليمي لاغير.

الأجوبة الأربعين:

وهذا كتاب ضخم في جزأين، أجاب فيه الإمام عن أربعين اعتراضًا، وجهتها الشيعة إلى الإمام محمد قاسم النانوتوي، فقد تناول الإمام الإجابة عن هذه الاعتراضات الواهية بشكل مقنع، وكانت إجابات الإمام تجمع بين الإفحام والإقناع؛ ولكن غلب عليه طابع القياس الجدلي لإلزام الخصوم، ولايستشهد الإمام بكثير من نصوص الكتاب والسنة؛ لأنه يعرف أن الشيعة يحملون النصوص في غير محاملها، ومن أجل ذلك قام الشيخ عبد الله الأنصاري صهر الإمام محمد قاسم النانوتوي (زوج ابنته) الذي عمل رئيسًا لقسم الدينيات السُنِّية في جامعة علي جراه الإسلامية، قام الشيخ عبد الله الأنصاري بكتابة إجابات مقنعة عن جميع الأسئلة، لتكون إجابات شافية، تجمع بين المعقول والمنقول، والمجلد الأول احتوى على إجابات عن ٢٨ سؤالا، والمجلد الثاني اشتمل على إجابات عن الأسئلة الباقية. وفي آخر الكتاب أورد الإمام أربعين اعتراضا على الشيعة وألزمهم أمورًا، لا يسهل الرد عليها، وإثبات أن هذا المذهب لايقره دين ولا عقل.

الأجوبة الكاملة في الأسولة الخاملة:

كتاب باللغة الأردية، احتوى على إجابات الإمام عن خمسة أسئلة، وجهتها الشيعة، وجاءت الإجابات بشكل مقنع، يتضمن مباحث نفيسة، وأبحاثا علمية قيمة، والكتاب كله متعة وطرفة.

مكاتيب قاسمي (رسائل القاسمي):

كتاب يجمع بين عدد من رسائل الإمام في موضوع التزكية والإحسان.

خاتمة وأهم التوصيات:

وبعد الجولة الممتعة في آثار الإمام النانوتوي رحمه الله توصَّل الباحث إلى نتائج تالية:

١. كان الإمام النانوتوي رحمه الله مجدد الإسلام وعبقري الأمة الإسلامية، أخذ على نفسه مهمة الدفاع عن الفكر الإسلامي، فاتجه بعلمه الغزيز كل الاتجاهات الفكرية، كتب في الاختلاف السني– الشيعي، وفي المسائل الخلافية بين مقلدي الأئمة الأربعة وغير المقلدين، والمسائل الخلافية بين المحافظين والعقلانيين، وكذلك تناول موضوع مقارنة الأديان، وأثبت أحقية الدين الإسلامي وفضله على سائر الأديان وموافقته للعقل والفطرة، وصلاحيته لكل عصر ومصر.

٢. إن أسلوب الإمام في جميع مؤلفاته هو أسلوب علمي سائغ، يفطنه وبكل سهولة المعنيون بالفكر والفلسفة، أما أولئك الذين لم يدخلوا باب الفلسفة، ولم يعرفوا اللب من القشر في المواضيع الفكرية، فهم بالطبع يستصعبون أسلوب الإمام، ومثلهم كمثل من قال فيه المتنبئ: ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

٣. كان الإمام يستغل المسلَّماتِ العقلية والمبادئ الفلسفية ويؤسس عليها براهينه الدامغة، وكان عالمًا بمثالب الديانات الأخرى وما فيها من مواضع الزلل والخلل، فكان يذكرها ويقارنها بالمسلمات العقلية والبدهية، ويثبت بُعْدَ الديانات الأخرى عن العلم والعقل، وعجزها عن إسعاد الإنسانية ومواكبة التطور العقلي.

٤. وقد اعترف كبار العلماء من معاصري الإمام وغيرهم بقيمة منهج الإمام وتأثيره، وأكد على الاستفادة من معارف الإمام وتحقيقاته الغُرِّ النادرة.

٥. إن التتبع والاستقراء، والجدة والابتكار، وبلاغة الكلام وقوته الأدبية، والتنوع والموسوعية والعصرية من أهم مميزات أسلوب الإمام النانوتوي رحمه الله في الفكر والبيان.

٦. خلَّف الإمام النانوتوي مصنفات علميةً قيمةً، تبلغ زهاء ثلاثين، وهي مآثر علمية عظيمة، جِمَاعُها العلم العميق والحكمة الدقيقة والفلسفة المؤيدة بالحجج

والبراهين، والرد على الاعتراضات المثارة ضد الإسلام، وقد وصفَ كبار العلماء والباحثين معارف الإمام وما تحويه من علم وعقل وحكمة وفلسفة، وصفوها بـ"الحكمة القاسمية".

٧. أما الأهمية العصرية لمؤلفات الإمام فهي مكنونة في أن مِنْ مقدورها أن تزوِّد كل مفكر إسلامي معاصر بما يحتاجون إليه من منهجٍ صحيحٍ وبراهين قوية وأسس متينة للبيان، وهذا أمر قد شهد به جميع علماء الإسلام ممن اطلعوا على مؤلفات الإمام وأدركوا قيمتها، ومن هنا نجد في الهند أن العلماء يعتنون بكتبهم اعتناءً بالغًا، ويدعون إلى دراستها الواعية.

* * *